



رسالة في مدح الكتب والحث على جمعها

لأبي عثمان عمرو بن بحر

الجاحظ

تحقيق

إبراهيم السامرائي

مقتبسة من مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الثامن (١٣٨٠هـ - ١٩٦١ م)

ضبطها وشرح كلماتها واعتنى بإخراجها

عبدالرحمن بن زيد العريج

يوسف بن محمد الكثيري



@ABOZAI42

قناة اختيارات شعرية وقرآنية

رسالة في مدح الكتب



والحث على جمعها

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم
قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لعائب عليه كُتِبَ :

عَبْتُ الْكِتَابَ وَنِعَمَ الذُّخْرَ وَالْعُقْدَةَ، وَنِعَمَ الْجَلِيسَ وَالنَّزْهَةَ، وَنِعَمَ الْمُشْتَغْلَ وَالْحِرْفَةَ، وَنِعَمَ
الْأُنَيْسَ سَاعَةَ الْوَحْدَةِ، وَنِعَمَ الْمَعْرِفَةَ بِلَادِ الْغُرْبَةِ، وَنِعَمَ الْقَرِينَ وَالذَّخِيلَ، وَنِعَمَ الْوَزِيرَ وَالنَّزِيلَ^(١)،
وَالْكِتَابَ وَعَاءَ مُلَيٍّ عِلْمًا، وَظَرْفَ حُشْيٍ ظَرْفًا، وَإِنَاءَ شَحْنٍ مَزْحًا وَجِدًّا، إِنَّ شَتَّى كَانَ أَبِينِ مِنْ سَحْبَانَ
وَائِلٍ، وَإِنْ شَتَّى كَانَ أَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ^(٢)، وَإِنْ شَتَّى ضَحِكْتَ مِنْ نَوَادِرِهِ، وَعَجِبْتَ مِنْ غَرَائِبِ فَرَائِدِهِ، وَإِنْ
شَتَّى شَجَّتْكَ مَوَاعِظُهُ، وَمَنْ لَكَ بَوَاعِظٍ مُلْهِ، وَبَارِدٍ حَارٍّ، وَمَنْ لَكَ بِطَبِيبٍ أَعْرَابِيٍّ، وَبِرُومِيٍّ هِنْدِيٍّ،
وَبِفَارِسِيٍّ يُونَانِيٍّ، وَبَقْدِيمٍ مُوَلَّدٍ، وَبِمَيْتٍ مُتَمِّعٍ بِهِ، وَبَشْيٍّ يَجْمَعُ الْأَوَّلَ وَالْآخَرَ، وَالنَّاقِصَ وَالْوَافِرَ،
وَالشَّاهِدَ وَالْغَائِبَ، وَالْحَسَنَ وَضَدَّهُ، وَبَعْدُ فَمَتَى رَأَيْتَ بُسْتَانًا يُحْمَلُ فِي رُودِنٍ^(٣)، وَرَوْضَةً تُقَلَّبُ فِي حِجْرٍ،
يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتَى، وَيَتَرْجَمُ كَلَامَ الْأَحْيَاءِ، وَمَنْ لَكَ بِمُؤْنَسٍ لَا يَنَامُ إِلَّا بِنَوْمِكَ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا تَهْوَى، أَمِنْ
مَنْ أَرْضٍ، وَأَكْتَمَ لِلسَّرِّ مَنْ صَاحِبِ السَّرِّ، وَأَضْبَطَ لِحَفْظِ الْوَدِيعَةِ مَنْ أَرْبَابِ الْوَدِيعَةِ، وَأَحْضَرُ مَنْ
الْأُمِّيِّينَ، وَمَنْ الْأَعْرَابِ الْمُعَرَبِينَ، بَلْ مِنَ الصَّبِيَّانِ قَبْلَ اعْتِرَاضِ الْأَشْغَالِ، حِينَ الْعَنَاءُ تَامَةً لَمْ
تُنْقَضْ، وَالْأَذْهَانُ فَارِغَةٌ لَمْ تَنْقَسِمْ، وَالْإِرَادَاتُ وَافِرَةٌ لَمْ تَتَشَعَّبْ، وَالطِّينَةُ لِينَةٌ فَهِيَ أَقْبَلُ مَا يَكُونُ
لِلطَّبَائِعِ، وَالْقَضِيبُ رَطْبٌ فَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوقِ^(٤)، حِينَ هَذِهِ الْخُصَالِ لَمْ يَلْبَسْ جَدِيدُهَا، وَلَمْ
تَتَفَرَّقْ قَوَاهَا، وَكَانَتْ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا فَارِغًا فَتَمَكَّنَا

وقال ذو الرِّمَّةِ لِعَيْسَى بْنِ عَمْرِو: اكَتَبْتُ شَعْرِي فَالْكِتَابُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْحَفْظِ لِأَنَّ الْأَعْرَابِيَّ يَنْسَى
الْكَلِمَةَ وَقَدْ تَعَبَ فِي طَلَبِهَا يَوْمًا أَوْ لَيْلَةً فَيَضَعُ مَوْضِعَهَا كَلِمَةً فِي وَزْنِهَا لَمْ يَنْشُدْهَا النَّاسَ، وَالْكِتَابُ لَا يَنْسَى
وَلَا يُبَدِّلُ كَلَامًا بِكَلَامٍ.

* الرسالة بتحقيق إبراهيم السامرائي وقد نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الثامن، وقد ذكر المحقق في مقدمة تحقيقه أن هذه الرسالة قائمة بذاتها وإن جاءت بعض مقاطعها في الحيوان وغيره من كتبه المنشورة، وهذا عائد إلى طبع الجاحظ المولع بالتكرار.

* من أراد قراءة مقدمة التحقيق فيفضل بالضغط على : رسالة الجاحظ بتحقيق إبراهيم السامرائي، ومن أراد الرجوع للمجلة فليضغط على : مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الثامن.

١-الزَّيْل : الضيف.

٢-سَحْبَانَ وَائِلٍ : من الخطباء المفوهين الذين يضرب به المثل في الخطابة، وِاقِلٍ : رجل يضرب به المثل في العي والغباء.

٣-الرُّودِنُ : كَمُ الْقَمِيصِ وَالشُّوبِ.

٤-القَضِيبُ : الغصن. العُلُوقُ : اللزوم والنشوب.



@ABOZAI42

قناة اختيارات شعرية وقرآنية



وَعَبَّتَ الْكِتَابَ وَلَا أَعْلَمُ جَارًا أَبْرَ، وَلَا خَلِيطًا أَنْصَفَ،^(١) وَلَا رَفِيقًا أَطْوَعَ، وَلَا مَعْلَمًا أَخْضَعَ، وَلَا صَاحِبًا أَظْهَرَ كِفَايَةً، وَلَا أَقْلَ جَنَايَةً، وَلَا أَعْدَمَ غَيْبَةً، وَلَا أَكْثَرَ أَعْجُوبَةً وَتَصَرُّفًا، وَلَا أَقْلَ صَلَفًا وَتَكْلَفًا،^(٢) وَلَا أَكْفَ عَنْ قِتَالٍ وَشَغَبٍ وَمَرَاءٍ مِنْ كِتَابٍ، وَلَا أَعْلَمُ شَجَرَةً أَطْوَلَ عَمْرًا، وَلَا أَجْمَعَ أَمْرًا، وَلَا أَطِيبَ ثَمَرَةً، وَلَا أَقْرَبَ مَجْتَنًى، وَلَا أَسْرَعَ إِدْرَاكًا، وَلَا أَوْجَدَ فِي كُلِّ إِبَّانٍ مِنْ كِتَابٍ،^(٣) وَلَا أَعْلَمُ نَتَاجًا فِي حَدَاثَةِ سَنَةٍ، وَقُرْبِ مِيلَادِهِ، وَحُضُورِ ذَهْنِهِ، وَإِمْكَانِ وُجُودِهِ، يَجْمَعُ التَّدَابِيرَ الْعَجِيبَةَ، وَالْعُلُومَ الْغَرِيبَةَ، وَمِنْ آثَارِ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ، وَمَحْمُودِ الْأَذْهَانِ اللَّطِيفَةِ، وَمِنْ الْأَخْبَارِ عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَالْبِلَادِ الْمَتْرَاحِيَةِ، وَالْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ، وَالْأُمِّ الْبَائِدَةِ مَا يَجْمَعُ الْكِتَابَ.

وَالْكِتَابُ مَعَ خِفَّةِ ثِقَلِهِ، وَصِغَرِ حَجْمِهِ، صَامِتٌ مَا أَسْكَتَهُ، وَبَلِغٌ مَا اسْتَنْطَقْتُهُ، وَمَنْ لَكَ بِمَسَامِرٍ لَا يَبْتَدِيكَ فِي حَالِ شُغْلِكَ، وَيَدْعُوكَ فِي أَوْقَاتِ نَشَاطِكَ وَلَا يُحَوِّجُكَ إِلَى التَّجَمُّلِ لَهُ، وَالتَّذَمُّمِ مِنْهُ، وَمَنْ لَكَ بِزَائِرٍ إِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ زِيَارَتَهُ غَبًّا، وَوُرُودَهُ خِمْسًا،^(٤) وَإِنْ شِئْتَ لَزِمَكَ لُزُومَ ذَلِكَ، وَكَانَ مِنْكَ مَكَانَ بَعْضِكَ.

وَالْكِتَابُ هُوَ الْجَلِيسُ الَّذِي لَا يُطْرِكُكَ، وَالصَّدِيقُ الَّذِي لَا يُغْرِيكَ، وَالرَّفِيقُ الَّذِي لَا يَمْلُكَ، وَالْمُسْتَمِيعُ الَّذِي لَا يَسْتَزِيدُكَ، وَالْجَارُ الَّذِي لَا يَسْتَبِطُكَ، وَالصَّاحِبُ الَّذِي لَا يَرِيدُ اسْتِخْرَاجَ مَا عِنْدَكَ بِالْمَلَقِ،^(٥) وَلَا يَعَامِلُكَ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ، وَلَا يَخْدَعُكَ بِالنِّفَاقِ وَالْكَذِبِ، وَالْكِتَابُ هُوَ الَّذِي إِنْ نَظَرْتَ إِلَيْهِ، أَطَالَ إِمْتَاعَكَ، وَشَحَذَ طِبَاعَكَ،^(٦) وَبَسَطَ لِسَانَكَ، وَجَوَّدَ بَيَانَكَ، وَفَتَحَ أَلْفَاظَكَ، وَبَحَّحَ نَفْسَكَ،^(٧) وَعَمَّرَ صَدْرَكَ، وَمَنْحَكَ تَعْظِيمَ الْعَوَامِّ وَصَدَاقَةَ الْمُلُوكِ، وَعَرَفْتَ بِهِ فِي شَهْرٍ مَا لَا تَعْرِفُهُ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ فِي دَهْرٍ، مَعَ السَّلَامَةِ مِنَ الْغُرْمِ وَمِنْ كَدِّ الطَّلَبِ، وَمِنْ الْوُقُوفِ بِيَابِ الْمَكْتَسِبِ بِالْتَعْلِيمِ، وَمِنْ الْجُلُوسِ بَيْنَ يَدَي مَنْ أَنْتَ أَفْضَلُ مِنْهُ خُلُقًا، وَأَكْرَمُ مِنْهُ عِرْقًا، وَمَعَ السَّلَامَةِ مِنْ مَجَالِسَةِ الْبُغْضَاءِ، وَمُقَارَنَةِ الْأَغْنِيَاءِ.

١- الخليط : القوم الذين أمرهم واحد، والخليط كذلك هو صاحب الذي تكثر مخالطته.

٢- الصلف : ثقل الروح، والتكبر والتعجرف..

٣- إبان : أوان الشيء ووقته.

٤- زيارته غبًا : يومًا بعد يوم، والورود الخمس : الزيارة كل خمسة أيام.

٥- الملق : التودد باللسان وإظهار الود وإظهار الكره والشر في القلب.

٦- شحذ السيف أو السكين : أجد سنانه، وشحذ الطباع تقويمها وصلها.

٧- بحبح : اتسع وازدهر.



@ABOZAI42

قناة اختيارات شعرية وقرائية

رسالة في مدح الكتب



والحث على جمعها

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

والكتاب هو الذي يُطِيعُكَ بالليل طاعته لك بالنهار، وبالسفر طاعته لك بالحضر، لا يعتل بنوم، ولا يعتريه كلال السهر^(١).

وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يُخَفِرْكَ^(٢)، وإن قطعت المسألة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك، ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل، لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء، ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الخوض [فيما لا يعنك]، ومن ملابسة صغار الناس^(٣)، وحضور أفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم السيئة، وجهالتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سُخف البيت، وعن اعتياد الراحة وعن اللعب، لقد كان في ذلك على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنّة، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: قال المهلب لبنيه في وصيته: يا بني لا تقوموا في الأسواق إلا على وراق أو زراد^(٤).

وقال شيخ قرىء عليه مآثر غطفان: ذهب المكارم إلا من الكتب.

وقال غيره: غبرت أربعين عاماً ما قلت ولا بت ولا اتكأت إلا والكتاب موضوع على صدري أو في ججري.

وقال علي بن الجهم: إذا غشيني النعاس في غير وقت نوم، وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة، تناولت كتاباً من كتب الحكمة فأجد اهتزازي للفوائد والأريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة، والذي يغشى قلبي من سرور الاستفادة وتيقظ العقل كالتيقظ بنهيق أو هدة الهدم.

وقال محمد بن الجهم: إذا استحسنْتُ الكتاب ورجوت منه الفائدة، فلو تراني وأنا أنظر ساعة بعد ساعة كم بقي من ورقه مخافة استنفاده، وانقطاع المادة من مثله، وإن كان الدفتر عظيم الحجم، وكان

١- كلال السهر: التعب والإعياء.

٢- الإخفار: نقض العهد.

٣- الملابسة: المخالطة.

٤- زراد: صانع الزرد « الدروع ».

٥- غبرت: مكثت وبقيت.



@ABOZAI42

قناة اختبارات شعرية وقرآنية

رسالة في مدح الكتب

والحث على جمعها

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ



الورق كثير العدد [فقد تمَّ عيشي وكثر سروري]. وقال : الإنسان لا يعلمُ حتى يكثر سماعه، ولا بدَّ من أن تصير كُتُبُه أكثر من سماعه حتى يجمع، ولا يجمع حتى يكون الإنفاق عليه من مال عدته^(١). وقال إبراهيم بن السندي: وددتُ أن الزنادقة لم يكونوا حِرَاصًا على المغالاة بالورق النقي الأبيض، وتخير الحبر الأسود والخط الجيد، فإنني لم أر كورق كُتِبَهم ورقًا، ولا كخطوطهم خطًا، وإني غرمتُ مالا عظيمًا مع حبي للمال، وبُغضي للغرم، لأنَّ سخاء النفس بالإنفاق على الكُتُب دليل على شرف النفس وعلى سلامتها من سُكر الآفات.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما دخلتُ على رجل قط، ولا مررتُ ببابه، فرأيتُه ينظرُ في دفتر، وجليسه فارغ إلا اعتقدتُ أنه أفضل منه وأعقل. [ومن لم تكن نفقته التي تخرجُ في الكتب التي عنده، ألدَّ عنده من إنفاق عُشَّاق القيان^(٢)، لم يبلغ في العلم مبلغًا راضيًا] وأنشد رجل يونس النحوي :

استودع العلم قرطاسًا فضيعةً فبئس مُستودعُ العلم القراطيس^(٣)

فقال : قاتله الله، ما أشدَّ ضنائه بالعلم، وأحسن صيائه له^(٤)، إن علمك من رُوحك، ومالك من بدنك، فضعه بمكان الروح، ومالك بمكان البدن.

وقال الخليل بن أحمد: لا يصلُ أحدٌ من علم النَّحو إلى ما يحتاج إليه، حتى يعلم ما لا يحتاج إليه وقال غيره: فإذا الذي لا يحتاج إليه، هو الذي يحتاج إليه، إذ لم يُوصل إلى ما يُوصل إلى ما يحتاج إليه، إلا بما لا يحتاج إليه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : قيّدوا العلم بالكتاب.

تمت الرسالة بحمد الله وحسن عونه
إبراهيم السامرائي

١- العدة : ما يجمع الإنسان لوقت حاجته.

٢- القينة: الأمة الصانعة، وغلب هذا اللفظ على المغنية.

٣- القراطيس: الصحف التي يكتب فيها.

٤- الضنانة : هي الشَّح في الأصل، وأراد شدة محافظته على العلم مثل محافظة الشحيح على ماله. صيائه له: حفظه للعلم.